التصوير البياني في حوار آيات العذاب في القرآن الكريم

فراس طركي الأحمد - جامعة البعث – حمص - سوريا

المُلخّص:

التصوير البياني سمةٌ بارزة في القرآن الكريم, وقد برزت في أسلوب الحوار, والتصوير البياني يجعل المعنى الذهني محسوساً, والمعنى المحسوس مشهداً متحركاً يموج بالحياة, وأسلوب الحوار من الأساليب الحكيمة والبليغة التي استخدمها القرآن الكريم في إقامة الأدلة على وحدانية الله, وصدق الرُسُل والوصول إلى الحقّ عن اقتناع عقلي, وارتياح نفسيّ, يجعل صاحبه يعيش حياتَه ثابتاً على ما آمن به, فجاءت هذه الدراسة تُبيّنُ الأثرَ النفسيّ والحسيّ والجمالي للتصوير البيانيّ في النفس البشرية من خلال حوار آيات العذاب, بعد أن وضّح البحث مفهوم التصوير لغة واصطلاحاً, وحدد معنى البيان المراد إيضاحه, وشرح معنى الحوار لغة واصطلاحاً, وكما بيّن مفهوم العذاب لغة واصطلاحاً, وتحديد آيات العذاب موضع الدراسة وحصرها, ثمّ قسّم البحث الدراسة إلى مطالب, فجاء المطلب الأول تحت عنوان: حوار أهل النار, وعُنونَ المطلب الثاني : حوار الله عزّ وجلّ مع أهل النار, وسُمِّيّ المطلب الثالث: حوار المعذّبين مع أعضائهم, وخُتمت الدراسة بمطلبٍ رابع: حوار الملائكة مع أهل النار, ثمّ كانت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة في ختام البحث.

Abstract

Graphic photography is a prominent feature of the Holy Qur'an. It has emerged in the style of dialogue, and graphic photography makes the meaning of the mind tangible, the tangible meaning a moving scene of life, and the dialogue method of the wise and eloquent methods used by the Quran to establish evidence of the oneness of God, The study showed the psychological, sensory

and aesthetic impact of graphic photography in the human psyche through the dialogue of the verses of torment, after the research clarified the concept of photography language and terminology, and defined the meaning To clarify the meaning to be clarified, and explain the meaning of the dialogue language and terminology, and between the concept of torment language and terminology, and identify the verses of torment study and inventory, and then divided the research study to the demands, came the first demand under the title: dialogue of the people of fire, and the second demand: And called the third demand: dialogue torturers with their members, and concluded the study with the fourth request: dialogue angels with the people of fire, and then was the most important findings of the study at the end of the research.

مقدمة

الجمال الفني الذي بهر العرب وأعجزهم في الكتاب العزيز, كان من مصدره تصوير المعاني والإبداع فيها بطرائق متنوعة, تتنافس درر البيان في القرآن كاشفة عن صورها المبدعة, بما تنطوي عليه من طرافة وإثارة للخيال والحسّ ولِمَلَكة التذوق, فينتقل الذوق من تشبيه إلى مجاز إلى استعارة إلى كناية, وهذا ما لمسناه في حوار آيات العذاب, وقد كثرت آيات الحوار في العذاب, فكان الذوق هو الحكم في اختيار آيات موضع الدراسة والتحليل البياني, فجاءت هذه الدراسة تُبيّنُ الأثَرَ النفسيّ والحسيّ والجمالي للتصوير البيانيّ في النفس البشرية من خلال حوار آيات, وتبيّن مدى أهميّة الصورة البيانية باستخدام الحوار , لتحقيق الهدف العام للقرآن الكريم وهو إصلاح الحياة وإصلاح ذات الفرد البشرية والمجتمع, ولتأكيد على أهمية الحوار فهو وسيلة من أهم وسائل الإقناع العقلي والتأثير النفسي, وكذلك لإبراز الجانب الجمالي والفنيّ في أسلوب الحوار, والتنبيه إلى مواطن الجمال فيه, ممّا يعمّق الإحساس بهزّ النفوس من خلال تشخيص المعاني الذهنية, وتحويلها إلى حياة وحركة تتجدد وتتوالى, وكذلك توضّح دقّة اختيار القرآنُ الكريم التعبيرَ بألفاظ وتراكيب معيّنة لا يؤدّي المعنى غيرها, وذلك بلغة الحوار والتصوير البياني المستخدمة في آيات العذاب, مما يقودان إلى الوقوف في لغة الحوار بين الله وبين أهل النار, والحوار بين أهل النار أنفسهم.

أمّاهدف الدراسة:

1-بيان أهم خصائص أسلوب المحاورة في آيات العذاب, وبيان الألوان البيانية التي تميز أسلوب المحاورة عن باقي الأساليب.

2-تناول البحث آيات العذاب التي ورد فيها الحوار, وتحليلها تحليلاً بيانيّاً,يوضّح الأساليب البيانية والبلاغية المستخدمة في الحوار.

3-بيان أثر التصوير البياني في آيات العذاب في التأثير في النفس البشرية, من خلال الحوار والإقناع العقلي, وجعل هذه النفس تعود إلى فطرتها السليمة باتباع الحق.

4-إبراز الأثر الكبير لأسلوب الحوار في حياة الناس, من خلال بلاغة التصوير البياني وطرائق الأداء الفريدة في البيان القرآني.

5-الاستشهاد بمجموعة من آيات العذاب التي ظهر فيها الحوار, بالتصوير البياني والبلاغة الفذّة التي أعجزت العرب أن يأتوا بمثل آيات القرآن.

أولاً: التعريف اللغوي للتصوير البياني:

فقد جاء في المعجم الوسيط, (الصورة), الشكل والتمثال وصورة المسألة أو الأمر: صفتها, وصورة الشيء ماهيته, والصورة خياله في الذهن أو العقل, وصورة الأمر وصفه وصفاً يكشف عن جزئياته.

التصوير في أصل معناه يدل على الشكل والهيئة والصفة[1] ومنه قوله تعالى:﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ﴾ [غافر:64].والتصوير مصدر للفعل صور, على وزن أو صيغة" فَعَل", وتعريفه كما جاء في المعجم الوسيط, التصوير: نقش صورة الأشياء أو الأشخاص على لوح أو حائط أو نحوها بالقلم أو الفرجون أو بآلة التصوير, نصل من ذلك أنّ التصوير عملية إبراز صفة أو تخييل شكل أو نوع أو هيئة لشيء معين حتى يسهل للآخر إدراكه. [2]

نستنتج أنّه لا يمكن إدراك معنى التصوير بدون أن نتأمل في معنى " الصورة", إنّ الكلمتين مشتقتان من مادة:

(ص و ر), فالصورة كما جاءت في التعريفات السابقة: الشكل, والنوع, والصفة, والهيئة والتمثال.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي للتصوير البياني:«اعلم أن قولنا " الصورة" إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا, فلمّا رأينا البينونة بين آحاد الأجناس

تكون من جهة الصورة فكان بين ما بين إنسان من إنسان وفرس من فرس خصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك, قلنا للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك».[3] والتصوير في الكلام يُبرِز المعنى ويبين هيئته من خلال الأداء الصوتيِّ وما يثيره في النفس من تجارب تطوف بالخيال والحسِّ معًا؛ لتستجليَ منهما صورًا مؤثِّرة واضحة المعنى.

ومن أوائل الذين تحدَّثوا عن التصوير الجاحظ (ت255هـ) في تعريفه للشعر بأنَّه: «صناعة وضرب من التصوير»[4]، كما ألمح إليه عبد القاهر الجرجانيّ حينما شبَّه المعاني في صياغتها وتصويرها بالحليّ المختلفة الأشكال والصياغة؛ المتفاوتة في دِقَّتها وإغرابها، وشبَّه البصير بصياغة المعاني وإحداث الصور بالحاذق في الإبداع والدِّقة، يخرِج المعنى في آنق صورة وأحسنها، فنراه قد تحوَّل جوهرة بعد أن كان خرزة، وصار أعجب شيء بعد أنْ لم يكن شيئًا.[5] وبتصوير الكلام تحصل صورة الشيء في العقل؛ وهذا ما يسمَّى بالتصوُّر الذي يكون به إدراكُ ماهية الأمور.[6]

تعريف الصورة:

و«الصورة هي ذلك التعبير اللغويّ الذي يتَّخذ نسقًا معيَّنًا يستثير في النفس مُدرَكات حسِّيَّة، مستخدِمًا في ذلك كلّ وسائل التأثير في اللُّغة من عبارات حقيقيَّة وتشبيهات ومجازات وكلمات ذوات جرس خاصّ... وقد تبدو الإشارة إلى رسم الصورة بجرس الكلمة أمرًا غريبًا بعض الشيء، لكنَّا نجد هذا النمط من التصوير في القرآن وفي غيره من النصوص شعرًا أو نثرًا، وبلغ في القرآن الكريم مستوًى رفيعًا لا يبارَى، حتى إنَّ الصورة لترتسم بتشكيل العبارة الصوتيِّ، دون أن يكون لها في الأصل دلالة حسِّيَّة»[7]

ثالثاً المعنى اللغوي والاصطلاحي لمفهوم البيان:

البيان لغةً: الظهور والوضوح, يُقال: بان الشيء إذا اتضح فهو بيِّن, واستبان الشيء: بمعنى ظهر فالبيان ما بُيِّن به الشيء من الدلالة وغيرها, والبيان الفصاحة واللّسن، وكلام بيِّن أي فصيح, والبيان الإفصاح مع ذكاء, والبيِّن من الرجال: الفصيح.[8] فالبيان إذن الإظهار والإيضاح بأي أمر كان.

المعنى الاصطلاحي للبيان :

ففيه يظهر الارتباط الوثيق بين كلمتي (بيان) و(تصوير)، فـ «علم البيان هو علم

الصورة الكلاميَّة المؤثِّرة، ولا ريب أنَّ الصور تختلف في تأثيرها على النفس، سواء في ذلك الصور الكلاميَّة أم الصور الحسِّيَّة، فهناك الصورة التي تروقك وتعجبك، وهناك الصورة التي تُستكرَه وتُستبشَع، ولكنَّ ثالثة تصل إلى أعماق نفسك، بل تهزُّ هذه النفس هزَّة طرب وتقدير، فبقدر ما يبدع المصوِّر في تحسين صورته، يكون لها من التأثير في نفوس الآخرين ».[9] وقد أخذ علم البيان تعريفه البلاغيّ ذا الصلة الوثيقة بالتصوير على يد السكَّاكيِّ (ت626هـ) الذي قسَّم البلاغة إلى: معانٍ وبيان ومحسِّنات، فعُرِّف البيان بأنَّه «علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه»،[10] وأضاف السعد (ت792هـ) إلى هذا التعريف أمرًا مهمًّا ينبغي التفطُّن إليه، هو مطابقة الكلام المدلول عليه لمقتضى الحال.[11]

وعلى هذا يكون التصوير البياني الذي سيجري هذا البحث عليه الذي يعتمد في إخراجه على صياغات علم البيان, كالتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وسواهما من الوسائط البيانية التي يستطاع فيها أداء المعنى الواحد بأساليب وطرائق مختلفة بحسب مقتضى الحال.

رابعاً مفهومُ الحوارِ وبيان معناه :

1- الحوار لغةً: مأخوذ من الحور وهو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء, والمحاورة: المجاوبة, والتحاور: التجاوب, وحاوره محاورة وحواراً: جاوبه, وجادله , وتحاوروا : تراجعوا الكلام بينهم وتجادلوا. [12]

2- الحوار اصطلاحاً: «هو نوع من الحديث بين شخصين, يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة ما, فلا يستأثر أحدهما دون الآخر, ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب, كما في قوله تعالى:﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾الكهف34».[13]

- **الفرق بين الحوار والجدال:**

ويصر علماء اللغة على التفريق بين المحاورة والمجادلة في المدلول, فأمّا المحاورة فهي عندهم مراجعة الكلام, وأمّا المجادلة فهي كما يفسّرها اللغويون: اللدد في الخصومة, وما يكون في نحو ذلك , ولكنها في كل صورها تدور حول التخاصم بالكلام.[14]

فالحوار والجدال يلتقيان في أنّهما حديث أو مناقشة بين طرفين, لكنهما يفترقان بعد

ذلك, فالجدال في اللغة: هو اللّدد في الخصومة والقدرة عليها, يقال جادله مجادلة وجدالاً: أي خاصمه, والاسم الجدَل وهو شدّة الخصومة, أمّا معنى الجدال في الاصطلاح : فهو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة, وقيل الأصل في الجدال الصراعُ وإسقاطُ الإنسان صاحبه على جدالة وهي الأرض الصلبة.(15)

ويمكن أن نخرج من حديث اللغويين بفارق واضح في مدلول اللفظتين, فالجدال والمجادلة والجَدَل كل ذلك ينحو منحى الخصومة في أي صور من صورها, ولو بمعنى التمسك بالرأي والتعصب له.

وأمّا المحاورة: فهي مجرد مراجعة الكلام بين المتكلمين ولا يلزم فيه صورة الخصومة, وإنما يغلب عليه صورة الكلام المتبادل بين طرفين ينتقل فيه الحديث من الأول إلى الثاني , ثم يعود إلى الأول دون أن يكون بين الطرفين ما يدل على الخصومة. وإذا ذهبنا إلى القرآن الكريم في استعمال اللفظتين نجد فيه هذه التفرقة, حيث يغلب استعمال القرآن الكريم للجدال في الموضع غير المرضي عنه أو غير المجدي, كقوله تعالى: ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر : 5]

وقد وردت مادة الجدال في نحو تسعة وعشرين موضعاً في القرآن الكريم, يغلب عليها جميعاً أن تكون في سياق عدم الرضا عن الجدال وعدم جدواه, كقوله تعالى :﴿ وَلا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيماً﴾[سورة النساء: الآية 107].وأمّا المحاورة فقد وردت مادتها في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع, لا تعني الخصومة لذاتها وإنما تعني مراجعة الكلام, كقوله تعالى :﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ الكهف37.

خامساً: مفهوم العذاب في اللغة والاصطلاح :

فيمكن أن نبين معناهما في اللغة والاصطلاح بشيء من الاختصار:

1- العذاب في اللغة: (عذب) العين والذال والباء أصلٌ صحيح، يقال عَذَّبْتُه تَعْذِيباً وعَذَاباً , العذاب: الألم. وقد قيل إن أصله الإعذاب مصدر أعذب إذا أزال العذوبة لأن العذاب يزيل حلاوة العيش فصيغ منه اسم مصدر بحذف الهمزة، أو هو اسم موضوع للألم بدون ملاحظة اشتقاق من العذوبة إذ ليس يلزم مصير الكلمة إلى نظيرتها في

الحروف.

والعَذَابُ النَّكَالُ والعُقُوبة , والعَذَابُ : عقاب ونكال : مؤلم شديد ، والعَذَابُ : كلُّ ما شَقَّ على النَّفْس، والسَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ ذو مشقَّة, والعذاب عذابان : عذاب القبر وعذاب جَهنَّم

{ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا }.قَاسَى الشَّقَاءَ وَالْعَذَابَ ومنه الأَلَمَ النَّفْسِيَّ الْمُتْعِبَ

والعذاب الأَلَمُ الجَسَدِيُّ الْمُؤْلِمُ . ومنه قوله تعالى: يَسُومُهُ سُوءَ عَذَابٍ :– إبراهيم آية 22 إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

العَذاب، يقال منه: عذَّب تعذيباً. وناسٌ يقولون: أصل العَذاب الضَّرب, قال: ثم استُعِير ذلك في كلِّ شِدّة.

والعذاب: ألمٌ جسديٌّ أو نفسيٌّ شديد ، وكلّ ما شقَّ على النَّفس احتماله ، عكْسه نعيم و العَذَابُ كلُّ ما شَقَّ على النَّفْس(16)

2– أمّا معنى العذاب في الاصطلاح قلت: هو كل ما نال الإنسان من أذى وإيجاع جسدي أو نفسياً أو هلاكاً في الحياة الدنيا وفي الآخرة قاسى الشقاء والألم الجسدي الشديد في نار جهنم وطرد من نعيم الله وجنته.

- **ورود مادة العذاب في القرآن الكريم:**

وقد وردت مادة (عذب) في القرآن كـ (اسم) في أكثر من ثلاثة مائة موضع، منها قوله تعالى: {فذوقوا العذاب} (آل عمران:106)؛ ووردت كـ (فعل) في ستة وعشرين موضًعا، منها قوله تعالى: {يعذب من يشاء} (المائدة:40)؛ ووردت كـ (اسم فاعل) في ثمانية مواضع، منها قوله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً} (الإسراء:14). وقد جاء وصف (العذاب) في القرآن بأنه (أليم) في ثلاثين موضعًا تقريبًا، منها قوله تعالى في المنافقين: {ولهم عذاب أليم}(البقرة:10)؛ وبأنه (شديد)، في نحو خمسة عشر موضعًا، منها قوله تعالى: {إن عذابي لشديد} (إبراهيم:7)؛ وبأنه (عظيم) في خمسة عشر موضعًا، منها قوله تعالى في المنافقين: {ولهم عذاب عظيم} (البقرة:7).

المطلب الأوّل : حوار أهل النار:

جاءت حوارات أهل النار في سور كثيرة منها: سورة البقر: 16- 167/ والأعراف: 52- 53/ والنحل: 86- 87/ طه: 102- 104/ والشعراء: 92- 102/ سبأ: 3- 33/ الصافات: 27- 32. وسيكتفي البحث بتحلل شاهداً واحداً وذلك لضيق المقام, فمن بين النصوص التي عالجت هذا الموضوع قوله تعالى على لسان الأتباع والمتبوعين في تحاورهما: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ (166) وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾(167). [سورة البقرة: الآيات 166 إلى 167]

معنى الإجمالي للآيتين الكريمتين :

ولعلّنا نبيّن معنى الآية قبل الدخول إلى أسرار البيان فيها حيث يقصد بالمتبوعين: أنهم السادة والرؤساء من مشركي الإنس، و شياطين الجن الذين صاروا متبوعين للكفار بالوسوسة, والمتبوعين يتبرأون من الأتباع ذلك اليوم منهم وهو عجزهم عن تخليصهم من العذاب الذي رأوه ، أمّا قوله تعالى (وتقطّعت بهم الأسباب)يقصد بها المواصلات التي كانوا يتواصلان عليها ,.)وأنها "الأرحام التي كانوا يتعاطفون بها , والعهود والحلف التي كانت بينهم يتوادون عليها. أمّا كلمة الأسباب فأصل السبب في اللغة الحبل قالوا: ولا يدعى الحبل سببا حتى ينزل ويصعد به[17]، ومنه قوله تعالى: فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ [الحج : 15] ثم قيل لكل شيء وصلت به إلى موضع أو حاجة تريدها سبب. يقال: ما بيني وبينك سبب أي رحم ومودة ،وقوله تعالى: "كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ " كتبرؤ بعضهم من بعض يريهم اللّه أعمالهم حسرات وذلك لانقطاع الرجاء من كل أحد. وكذلك كما أراهم العذاب يريهم اللّه أعمالهم حسرات، لأنهم أيقنوا بالهلاك . والمراد بالأعمال, أنها الأعمال التي اتبعوا فيها السادة ، وهو كفرهم ومعاصيهم، وإنما تكون حسرة بأن رأوها في صحيفتهم ، وأيقنوا بالجزاء عليها ، وكان يمكنهم تركها والعدول إلى الطاعات ، وفيها مجاز بمعنى لزمهم فلم يقوموا به[18]

التصوير البياني للآيتين: الحسرة حزن في ندامة وتلهف واشتقاقها من الحسر وهو الكشف لأن الكشف عن الواقع هو سبب الندامة على ما فات من عدم الحيطة له. وقوله تعالى: " وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ" « هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية، ثم ختم

الخبر عنهم بأنهم غيرُ خارجين من النار، بغير استثناء منه وَقتًا دون وقت. فذلك إلى غير حدّ ولا نهاية. وما هؤلاء بخارجين من النار التي أصلاهُموها الله بكفرهم به في الدنيا، ولا ندمُهم فيها بمنجيهم من عذاب الله حينئذ، ولكنهم فيها مخلدون ».[19]

وللآلوسي كلام جميل في تصوير التبرّؤ الذي لم يحصل بعد , وإنّما هو تصوير لِما يقع يوم القيامة : «فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ أي من المتبوعين كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا تمنوا الرجوع إلى الدنيا حتى يطيعوا اللّه تعالى فيتبرؤوا من متبوعيهم في الآخرة إذا حشروا جميعا مثل تبري المتبوعين منهم مجازاة لهم بمثل صنيعهم ، أي كما جعلوا بالتبري غائظين متحيرين على متابعتهم نجعلهم أيضا بالتبري غائظين متحيرين على ما حصل لنا بترك متابعتهم ، ولذا لم يتبرؤوا منهم قبل تمني الرجوع لأنه لا يغيظ المتبوعين حيث تبرؤوا من الأتباع أولا».[20]

أمّا قوله تعالى (إِذْ تَبَرَّأَ) فقد علّق عليه ابن عاشور في تفسيره , وذكر فيه وجهاً خالف فيه سابقيه «وجيء بالفعل بعد "إذ" هنا ماضيا مع أنه مستقبل في المعنى لأنه إنما يحصل في الآخرة تنبيها على تحقق وقوعه, فلما أريد تصوير الحال وتهويل الاستفظاع عدل عن الاستئناف وجاء بجملة:{وَرَأَوُا الْعَذَابَ} حالية أي تبرءوا في حال رؤيتهم العذاب، ومعنى رؤيتهم إياه أنهم رأوا أسبابه, فجعلوا يتباعدون من أتباعهم لئلا يحق عليهم عذاب المضللين، ويجوز أن تكون رؤية العذاب مجازا في إحساس التعذيب، فموقع الحال هنا حسن جدا وهي مغنية عن الاستئناف الذي يقتضيه».[21]

يمكن أن ندرك أنّ الحوار بين المتبوعين والأتباع في ذلك الموقف في الصدق والكشف عن الحقيقة من كلا الطرفين, حيث يُعرضُ فيه المشهد مصوَّراً شاخصاً للأتباع والمتبوعين في جهنم يوم القيامة وفيها براءة ومفاصلة وحسرات, للفريقين, يعرض خزيَهم وندمهم, ويصوّر براءة المتبوعين هناك من أتباعهم, وتمنّي الأتباع لو قدروا على أن يتبرّؤوا من متبوعيهم, ويُرينا الحسرةَ المؤلمة التي تعلو وجوهَ الفريقين[22].

نجد التصوير البياني في الاستعارة التمثيلة هي أقرب الوجوه التي تصور لنا بيان حالهم والحوار الذي دار بين الأتباع والمتبوعين, وقد تبرأوا عن اتباعهم حال رؤيتهم العذاب الأليم, وانقطع كل سبب كان يوصل بينهم،ففي قوله: {وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ}الأسباب جمع سبب وهو الحبل الذي يمد ليرتقي عليه في النخلة أو السطح, فهي ههنا استعارة تمثيلية «شبهت هيئتهم عند خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذي

تعبوا لأجله مدة حياتهم وقد جاء إبانه في ظنهم فوجدوا عوضه العذاب، بحال المرتقى إلى النخلة ليجتني الثمر الذي كد لأجله طول السنة فتقطع به السبب عند ارتقائه فسقط هالكا، فكذلك هؤلاء قد علم كلهم حينئذ أن لا نجاة لهم فحالهم كحال الساقط من علو لا ترجى له سلامة، وهي تمثيلية بديعة لأنها الهيئة المشبهة تشتمل على سبعة أشياء كل واحد منها يصلح لأن يكون مشبها بواحد من الأشياء التي تشتمل عليها الهيئة المشبه بها وهي: تشبيه المشرك في عبادته الأصنام واتباع دينها بالمرتقي بجامع السعي، وتشبيه العبادة وقبول الآلهة منه بالحبل الموصل، وتشبيه النعيم والثواب بالثمرة في أعلى النخلة لأنها لا يصل لها المرء إلا بعد طول, وهو مدة العمر، وتشبيه العمر بالنخلة في الطول، وتشبيه الحرمان من الوصول للنعيم بتقطيع الحبل، وتشبيه الخيبة بالبعد عن الثمرة، وتشبيه الوقوع في العذاب بالسقوط المهلك. وقلما تأتي في التمثيلية صلوحية أجزاء التشبيه المركب فيها لأن تكون تشبيهات مستقلة, فالباء في{بهم} للملابسة أي تقطعت الأسباب ملتبسة بهم أي فسقطوا، وهذا المعنى هو محل التشبيه لأن الحبل لو تقطع غير ملابس للمرتقى عليه لما كان في ذلك ضر إذ يمسك بالنخلة ويتطلب سببا آخر ينزل فيه, وبهذه الباء تقوم معنى التمثيلية بالصاعد إلى النخلة بحبل».[23] وقد تكون الصورة بحرف كحرف التشبيه الكاف, في تصوير شدّة حقد وغيظ الأتباع على رؤسائهم بعد ما تبيّن في الحوار أنهم تبرأوا منهم «والكاف في {كَمَا تَبَرَّأُوا} [البقرة:167] للتشبيه استعملت في المجازاة لأن شأن الجزاء أن يماثل الفعل المجازي قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}الشورى:40,والمعنى أنهم تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا بعدما علموا الحقيقة وانكشف لهم سوء صنيعهم فيدعوهم الرؤساء إلى دينهم فلا يجيبونهم ليشفوا غيظهم من رؤسائهم الذين خذلوهم ولتحصل للرؤساء خيبة وانكسار كما خيبوهم في الآخرة ».[24]«و{لو} في قوله: {لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً} مستعملة في التمني وهو استعمال كثير لحرف {لو} وأصلها الشرطية حذف شرطها وجوابها واستعيرت للتمني بعلاقة اللزوم لأن الشيء العسير المنال يكثر تمنيه، وسد المصدر مسد الشرط والجواب، وتقدير الكلام لو ثبتت لنا كرة لتبرأنا منهم وانتصب ما كان جوابا على أنه جواب التمني وشاع هذا الاستعمال حتى صار من معاني لو وهو استعمال شائع وأصله مجاز مرسل مركب وهو في الآية مرشح بنصب الجواب».[25] وجاءت الفاصلة في ختام الآيات وكأنها القفلة في الفصل بين المتحاورين,

فقال تعالى: (وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ), تذييل لمضمون الكلام السابق,« لأنهم إذا كانوا لا يخرجون من النار تعين أن تمنيهم الرجوع إلى الدنيا وحدوث الخيبة لهم من صنع رؤسائهم لا فائدة فيه إلا إدخال ألم الحسرات عليهم وإلا فهم يلقون في النار على كل حال. وعدل عن الجملة الفعلية بأن يقال {وما يخرجون} إلى الاسمية (وَما هُمْ بِخارِجِينَ) للدلالة على أن هذا الحكم ثابت أنه من صفاتهم، وليس لتقديم المسند إليه هنا نكتة، إلا أنه الأصل في التعبير بالجملة الاسمية في مثل هذا إذ لا تتأتى بسوى هذا التقديم ».(26)

يوضح لنا الحوار السابق صورة الأتباع والمتبوعين يوم القيامة, بعد أن تتكشف الأمور عن حقائقها, ويقف الجميع عاجزين أمام عذاب الله عزّ وجلّ , ويبدأ بينهم الحوار والتلاوم والتبرّؤ والحسرة والندم.حيث يتبرّأ المتبوعون والسادة والزعماء والرؤساء من أتباعهم ويفاصلونهم ويقطعون علاقتهم بهم, وينكرونهم, ويخاصمونهم في كل ما نسبوه إليهم, أمام عذاب الله وهول الموقف يوم القيامة: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا) رغم أنّ التابعين بأمسّ الحاجة إلى الأتباع فنجد أنّ المتبوعين تخلّوا وتبرؤا عنهم. وتبرّؤ التابعين هو انفصالهم عن متبوعيهم والندم على عبادتهم إذْ لم يجدِ عنهم نفعاً يوم القيامة, ولم يدفع عنهم عذاب الله بعد أنْ رأوه رأي العين, حيث تنقطع بينهم كل العهود والوصلات والجاه والمودّات , وكل أسباب النجاة , فلا مُخلِّص يخلصهم من عذاب الله, حيث تتقطّع الروابط والأسباب بينهم, ويستشعرون بعِظَم الخسارة , وتستولي عليهم شدّة الندامة والحسرة والغيظ والحقد على أتباعهم وساداتهم في الدنيا, فيقولون: لو أنّ لنا كرة فنتبرّأ منهم كما تبرّأوا منا, فهم يتمنَّون الرجوع إلى الدنيا – وهو تمنّي لا يمكن حصوله, ولا يُرجى نواله – حتى يطيعوا الله, ثمّ يتبرّأوا منهم في الآخرة, غير أنّ الحسرة والندامة في ذلك الموقف وشدّة اليوم العصيب, لا تنفع شيئاً, ما لم يكن قد سبقها عمل صالح في الحياة الدنيا.فيُختم نهاية المشهد الحواري بينهم بصورة فظيعة وحكم عادل من الله عزّ وجلّ أنّ كلا الفريقين مخلّدون في النار, (وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ), مصيرهم النار مخلّدون فيها, بسبب كفرهم وعنادهم وتكبّرهم في الأرض , وحسرتهم لا تنجيهم من الخلود في النار.

قد يتبادر إلى الأذهان السؤال الآتي:لماذا خضع الأتباع للمتبوعين؟ ولماذا جعلوهم آلهة وأنداداً لله؟

ولعلّنا لا نجانب الصواب إذا أخذنا بقول احد الباحثين المعاصرين: « لقد خدعَتهم قوةُ المتبوعين, فهم أصحاب الأمر والنهي , ومالكو النفوذ والسلطان, وبيدهم كل شيء, كما يبدو للناظر قصير النظر, ولذلك خافوهم , وتَوَقّعوا بطشهم, وفكروا في أعمارهم وأرزاقهم , وأعمالهم, وطمعوا في القرب والحظوة عند متبوعيهم, فعبدوهم وذلّوا وضعفوا أمامهم ».[27]

غير أنّ الحقيقة غير هذا التوهم إذْ أن القوة جميعاً بيد الله, ولكن هل المتبوعين كذلك؟ وهل يملكون القوة التي ظنها الأتباع الأذلاء؟

لابدّ من تصوّر المشهد والموقف والمنظر الحقيقي يوم القيامة للفريقين المتحاورين, ولك أن تعيش هذا المشهد التصويري من مشاهد يوم القيامة قوله تعالى: «وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ» البقرة:(165).

ها هم المتبوعون واقفون مع الأتباع يوم القيامة ماذا معهم؟ إنّهم مثلُ الأتباع تماماً, لا يملكون أيَّ مظهر من مظاهر القوة, لأن القوة كلها بيد الله وحده, والعذاب ينتظر الأتباع والمتبوعين جميعاً, والفريقان ضعفاء أذلاء لا يملكون شيئاً, وبعد أنْ تتضح الصورة يوم القيامة, وتتكشف الأمور عن حقائقها, يقوم المتبوعون بالبراءة من أتباعهم والتخلّي عنهم.

هذه هي نهاية الصلة بين الأتباع والمتبوعين, كم قدّمَ الأتباع الضعفاء لمتبوعيهم في الدنيا! وكم أنفقوا من الأوقات والأعمار والطاقات والكرامة ! وكم خدموهم وأعانوهم ودعموهم !والآن وعند حاجة الأتباع لمتوعيهم, يسارع المتبوعون بالتبرّؤ من خدمِهم وأتباعهم, لمّا رأوا العذاب قادماً يغشى الفريقين !.[28]

أهم العبر المستفادة من هذا الحوار:

1- تبرّأ المعبودين من عابديهم, ويتبرّأ العابدون من معبوديهم.[29]
2- يتمنّى العابدون الرجوع إلى الدنيا حتى يتبرّؤا من الآلهة المزعومة. [30]
3- لا عذر لأحد في الإتباع المحض, والتقليد المحض. [31]

4- اشتراك الأتباع مع المتبوعين في العذاب, حيث يوقفون للحساب معهم, ويشعرون بالحسرة والندامة والخزي والذل معهم, ويدخلون جهنّم معهم, ويتقلّبون في نارها وعذابها معهم, ويخلّدون فيها معهم, ويتحمّلون المسؤولية معهم (32)

المطلب الثاني: حوار الله عزّ وجلّ مع أهل النار:

كثرت في حوار آيات العذاب نصوص مختصّة لحوار الله عزّ وجلّ مع أهل النار, وقد وردت في سور قرآنية متفرّقة, ولعلّنا من خلال القراءة والاحصاء, وجدنا الآيات المختصة بحوار الله مع أهل النار في السور الآتية: سورة الأنعام: 22-24 / إبراهيم: 44 / النحل: 86- 87 / طه: 124- 126 / المؤمنون: 103- 116 / القصص: 61- 66 , 74- 75 / فاطر: 36- 37.

وقد اخترنا الآيات الكريمات من سورة المؤمنين من بين تلك السور نبيّن فيهنّ كيف صوّر النص صراخ أهل النار وآلامهم وأنّاتهم فعبّر التصوير البياني في إبراز المعاني , والتأثر في النفوس من خلال حوار الله عزّ وجل مع أهل النار,قال تعالى:وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿103﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿104﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿105﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿106﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿107﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿109﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿110﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿111﴾:المؤمنون ١٠٣ - ١١١.

المعنى العام للآيات الكريمة:

يقول تعالى ذكره:(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) موازين حسناته، وخفت موازين سيئاته(فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) يعني: الخالدون في جنات النعيم(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) يقول ومن خفَّت موازين حسناته فرجَحَت بها موازين سيئاته(فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) يقول: غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله(فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) يقول: هم في نار جهنم. وقوله:(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ) يقول: تَسْفَع وُجوهَهم النارُ. والكلوح: أن تتقلص الشفتان عن الأسنان، فتأويل الكلام: يَسْفَع وجوههم لهبُ النار فتحْرقها، وهم فيها متقلصو

الشفاه عن الأسنان؛ من إحراق النار وجوههم (تلفح تسفع), يقال سفعتْهُ النارُ أي: أحرقته, وعنه استُعير لفحتُه بالسيف[33]

أمّا(اخْسَؤُا فِيها), ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت. يقال : خسأ الكلب وخسأ بنفسه وَلا تُكَلِّمُونِ في رفع العذاب ، فإنه لا يرفع ولا يخفف. قيل : هو آخر كلام يتكلمون به ، ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون.[34]

التصوير البياني في الآيات:

قوله:{فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ} وهي هنا تمثيل لحال خيبتهم فيما كانوا يأملونه من شفاعة أصنامهم وأن لهم النجاة في الآخرة أو من أنهم غير صائرين إلى البعث، فكذبوا بما جاء به الإسلام وحسبوا أنهم قد أعدوا لأنفسهم الخير فوجدوا ضده فكانت نفوسهم مخسورة كأنها تلفت منهم, واسما الإشارة لزيادة تمييز الفريقين بصفاتهم. {تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ } تحرق. واللفح: شدة إصابة النار, والوجه أشد الأعضاء تألما من حر النار, قال الزجاج : اللفح والنفخ واحد إلا أن اللفح أشد تأثيراً, والكالح: الذي به الكلوح وهو تقلص الشفتين وظهور الأسنان من أثر تقطب أعصاب الوجه عند شدة الألم. كما ترى الرؤوس المشوية.[35] ومشهد لفح النار للوجوه حتى تكلح ، وتشوه هيئتها ، ويكدر لونها .. مشهد مؤذ أليم. فإذا العذاب الحسي – على فظاعته وكأنما نحن نراه اللحظة ونشهده في حوار طويل.

يستوقفنا الله عزّ وجل في هذا الحوار مع أهل النار في محطات كثيرة:

من أولى هذه المحطات صيغة الاستفهام المتبوع باعتراف من أهل النار, قال تعالى:(أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (105) قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ), فهذا السؤال من الله استدراج للمخاطبين في الإقرار والاعتراف من أنفسهم, وهو سؤال للتبكيت لا يطلب عليه منهم جواب , بل كي يقدّموا تفاصيل عن ماضيهم المخيم والأسود في الحياة الدنيا, وإعراضهم عن الذكر والهدى, وتكذيبهم الآيات, وإنكارهم وحدانية الله وإفراده بالربوبية. وقد أجاب أهل النار: (غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ), هذا الجواب اعتراف وإقرار منهم أنّ سبب الضلال غلبة الشقوة على

إرادتهم, وحولها بينهم وبين الحق, حيث كان سلطانها قويّ على قلوبهم الهائمة, وعقولهم المسكرة, فساعدتهم على الانجذاب إلى الضلالة.

قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا, «أي استولت علينا وملكتنا شقاوتنا التي اقتضاها سوء استعدادنا كما يومئ إلى ذلك إضافتها إلى أنفسهم, وأيا ما كان فنسبة الغلب إليها لاعتبار تشبيهها بمن يتحقق منه ذلك ففي الكلام استعارة مكنية تخييلية ولعل الأولى أن يخرج الكلام مخرج التمثيل ومرادهم بذلك على جميع الأقوال في الشقوة الاعتراف بقيام حجة اللّه تعالى عليهم لأن منشأها على جميع الأقوال عند التحقيق ما هم عليه في أنفسهم فكأنهم قالوا : ربنا غلب علينا أمر منشؤه ذواتنا وَكُنَّا بسبب ذلك قَوْماً ضالِّينَ عن الحق مكذبين بما يتلى من الآيات فما تنسب إلى حيف في تعذيبنا ، قالَ اللّه سبحانه إقناطا لهم أشد إقناط اخْسَؤُا فِيها أي ذلوا وانزجروا انزجار الكلاب إذا زجرت من خسأت الكلب إذا زجرته فخسأ أي انزجر أو اسكتوا سكوت هوان ففيه استعارة مكنية قرينتها تصريحية وَلا تُكَلِّمُونِ باستدعاء الإخراج من النار والرجع إلى الدنيا، وقيل: لا تكلمون في رفع العذاب، وقيل : لا تكلمون أبدا وهو آخر كلام يتكلمون به».[36]

أمّا المحطة الثانية فقد خصصت للدعاء والتضرع بعد أن أدان المتهمون أنفسهم في المحطة الأولى بالاعتراف والإقرار, اتجه جماعة بهذا الدعاء يرجون الخلاص من العذاب:(رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ), فهم بهذا المشهد التصويري, وما هم فيه من العذاب أنّ الاعتراف بالذنب قد يجدي في قبول الرجاء في الإفراج والعفو عنهم.

فكانت المحطة الثالثة أشنع المحطات توبيخاً وتعنيفاً, كانت صريحة لإعلان الرفض رفض الاستجابة المطلقة, وهذا عقاب لهم إذ حطّم آمالهم في النجاة, بل خاطبهم الله عزّ وجلّ بأقبح كلمة تستعمل أصلاً لزجر الكلاب: (قالَ اخْسَؤُوا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ), فهم ليسوا أهلاً لتكليمه والطلب منه فقد فات الأوان, اخرسوا واسكتوا سكوت الأذلاء المهينين ، وهو «زجر شتم بأنهم خاسئون، ومعناه عدم استجابة طلبهم »[37]

فإنكم لتستحقون ما أنتم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين. « عند ذلك يتمّ عليهم البلاء ، ويشتدّ عليهم العناء ، وفى الخبر: أنهم ينصرفون بعد ذلك فإذا لهم عواء كعواء الذئب».[38]

ولقد ربط الزجر بسبب قوي في هذا الخطاب العنيف, فرفض التكليم ليس باتباع الضلالة فقط, بل بسبب آخر, فقد كان فريق من المؤمنين تلهج ألسنتهم بالدعاء رجاء الغفران, وطلباً للرحمة, فلاقوا من هؤلاء الظالمين أسوأ المعاملات , ولاقوا أذى كثيراً, وسخرية قاسية, لهذا كان ردّ الله بهذا الأسلوب: (إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ), فهذه السخرية بقدر ما كانت تحقق لهم اللّذة وتمتعهم, إلا أنّها أصبحت وبالاً عليهم. « و{حَتَّى} ابتدائية ومعنى {حَتَّى} الابتدائية معنى فاء السببية فهي استعارة تبعية. شبه التسبب القوي بالغاية فاستعملت فيه {حَتَّى}. والمعنى: أنكم لهوتم عن التأمل فيما جاء به القرآن من الذكر لأنهم سخروا منهم لأجل أنهم مسلمون فقد سخروا من الدين الذي كان اتباعهم إياه سبب السخرية بهم فكيف يرجى من هؤلاء التذكر بذلك الذكر وهو من دواعي السخرية بأهله. فإسناد الإنساء إلى الفريق مجاز عقلي, أو هو مجاز بالحذف بتقدير: حتى أنساكم السخري بهم ذكري، والقرينة على الأول معنوية وعلى الثاني لفظية».(39)

وبعد هذا الرد القاسي المهين, وبيان أسبابه وما في البيان من تعزيز وتبكيت يبدأ استجواب جديد في محطة جديدة وهي الأخيرة في هذا الحوار:(قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ (113) قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114).

ففي هذا المقطع التصويري يسأل الله عزّ وجلّ أهل النار عن عدد السنوات التي عاشوها في الدنيا, فكانت إجابتهم دالة على تمزّق في ذاكرتهم, فقد نَسوا أمام الهول العظيم ان يعدوها, وعندما لم يجدوا جواباً آخر, قالوا: (فَسْئَلِ الْعادِّينَ), «فهو اعتراف بأنهم لم يضبطوا مدة مكثهم فأحالوا السائل على من يضبط ذلك من الذين يظنونهم لم يزالوا أحياء لأنهم حسبوا أنهم بعثوا والدنيا باقية وحسبوا أن السؤال على ظاهره فتبرأوا من عهدة عدم ضبط الجواب. ولم يعرج المفسرون على تبيين المقصد من سؤالهم وإجابتهم عنه وتعقيبه بما يقرره في الظاهر. والذي لاح لي في ذلك أن إيقافهم على ضلال اعتقادهم الماضي جيء به في قالب السؤال عن مدة مكثهم في الأرض كناية عن ثبوت

خروجهم من الأرض أحياء وهو ما كانوا ينكرونه، وكناية عن خطأ استدلالهم على إبطال البعث باستحالة رجوع الحياة إلى عظام ورفات».[40]

فهذا الحوار الطويل هو ملتقى الجزاءات المتنوعة, الجزاء بالمهانة واللامبالاة والتحقير لأهل النار, ويعتبر هذا الحوار تسفيهاً من الله للعظمة والتسامي بالنفس والغفلة الإنسانية, وفيه يبرز الجانب المعنوي في صورة خوف شديد من العاقبة, وبهذا تجسد السقوط الحر لأهل الضلالة.

أهم العبر المستفادة من هذا الحوار:

1- المعاناة الحسية والمعاناة النفسية لأهل النار, وهي تجمع أهل النار في ظل عذاب شديد لا مفرّ منه.

2- الحث على التدبّر والتفكّر في الكون والنفس.

3- انعدام التدبر والانشغال بالملذّات والسخرية بأهل النار نهايتها الوحيدة هي الدخول في النار.[41]

المطلب الثالث: حوار المعذّبين مع أعضائهم:

إنّ طريقة القرآن في التعبير بالتصوير, وتجسيم المعاني في صور حسيّة, لم تتوقف عند حد تصوير حوار الإنسان, بل تجاوزه إلى الحوار مع شخصيات لا لسان لها, لكنّها في التصوير شخصيات ناطقة بل وشاهدة, لأن الشهادة أبلغ من النطق لمجرد النطق, هذه الشخصيات هي جوارح الإنسان وأعضاؤه اللصيقة به, فبعد أن كانت في الدنيا تقوم بوظائف مختلفة في صمتٍ عجيب, هاهي في الآخرة تكتسب لساناً ناطقاً, يقوم لتقوم بوظيفة مغايرة تماماً لوظيفتها السابقة.

ومن خلال المراجعة والمطالعة للنصوص القرآنية, أفصحت النصوص عن حوارات المعذّبين مع أعضائهم , لإبراز جانب فريد من المفاجآت المتنوعة التي تصور فعلاً وبقوة مصير الإنسان الضّال في مأساته الكبرى, المتمثّلة في عذابه الحسي والمعنوي معاً.[42]

ومن هذا فإنّ حوار المعذّبين مع أعضائهم يندرج ضمن حوارات أهل النار, وعلى الرغم من قلتها فقد كان للتصوير فيه حظ كبير يمكننا أن نذكر منها :سورة النور: 23-24 /, سورة يس: 63- 65/ , سورة فصّلت: 19- 22.

وسأكتفي بتحلل مثال واحد على حوار المعذبين مع أعضائهم في سورة فصلت وذلك لضيق المقام.

بدت المراجعة الكلامية واضحة بين الأطراف السائلة – أهل النار– وبين الأعضاء المجيبة في سورة فصلت. قال عز وجلّ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (23) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾(24). [سورة فصلت (41): الآيات 19 إلى 24]

المعنى العام للآيات الكريمات:

يقول تعالى ذكره: ويوم يجمع هؤلاء المشركون أعداء الله إلى نار جهنم، فهم يحبس أولهم على آخرهم.(فَهُمْ يُوزَعُونَ) قال: عليهم وزعة تردّ أولاهم على أُخراهم. حتى إذا ما جاءوا النار شهد عليهم سمعهم بما كانوا يصغون به في الدنيا إليه، ويسمعون له، وأبصارهم بما كانوا ينظرون إليه في الدنيا(وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). وقال هؤلاء الذين يحشرون إلى النار لجلودهم إذ شهدت عليهم :لمَ شهدتم علينا بما كنا نعمل في الدنيا؟.[43] فأجابتهم جلودهم:(أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) فنطقنا; وذكر أن هذه الجوارح تشهد على أهلها عند استشهاد الله إياها عليهم إذا هم أنكروا الأفعال التي كانوا فعلوها في الدنيا بما سخط الله .[44]

التصوير البياني في الآيات الكريمات:

يحشر اللّه عز وجل أَعْداءُ اللَّهِ الكفار من الأوّلين والآخرين يُوزَعُونَ أي يحبس أوّلهم على آخرهم ، أي : يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم ، وهي عبارة عن كثرة أهل النار,[45] وقد علّق الطيبي في فتوح الغيب على كلام الزمخشري: وقوله: (وهي عبارة عن كثرة أهل النار), أي: «كناية عن الكثرة, فيكونوا مجتمعين لا يتخلّف منهم أحد, وذلك الكثرة العظيمة».[46]

بعد أن يشهد الإنسان على نفسه بلسان حاله ومقاله, ويعترف بأوجه التفريط في جنب الله, تسحب منه كل الصلاحيات. كي تترك الفرصة لأعضائه أن تكون طرفاً آخر في حوارات الآخرة, إذ أثبتت الآي قدرة الله على استنطاق الأعضاء, بأن يهبها حياة و إدراكاً, كي تقوم بوظيفة من أشرف الوظائف ألا وهي الشهادة شهادة الحاضر على المتهم.

يبدأ عرض المشهد التصويري بالحشر, وهو فعل يختص بالجماعة الكبيرة من الناس ويقول أبو حيّان« والحشر: الجمع على عنف»,[47] بين الطرفين المتحاورين, الإنسان وأعضائه, حيث كانت أعضاء الإنسان في الدنيا جماداً لا حياة فيها تقوم بوظائف إرادية ولا إرادية, لكن يوم القيامة في ذلك الموقف العظيم الذي أذهل كل المخلوقات, استعار الله للأعضاء النطق والحديث ومراجعة الكلام, من الإنسان ليجعلها تنطق وتحاور, فتكون حجّة على الإنسان الذي كان يفعل المحرمات والموبِقات ويظن أن لا أحد يراه, إذ إنّ جوارح الإنسان التي كانت صامتة, أصبحت الآن ناطقة تشهد على أفعال الإنسان الإجرامية, فهو مشهد تصويري يذهب بعقول المخاطبين, «بعد إنكارهم فعل المعاصي يوم القيامة, تشهد عليهم الجوارح والجلود فيتحصل عليهم الخزي والافتضاح أمام الخلائق على ألسنة جوارحهم, فهم لم يتوقّعوا هذا منهم, وقد اطمأنوا إلى استتارهم إليهم في الدنيا, وفي ذلك لطيفة بيانية أن الكافرين لا يملكون السيطرة على جوارحهم يوم القيامة, وأنّ الله يجردهم منها فتصبح من أعدائهم وتزيد من خزيهم وتظهر عيوبهم , فتعلن معاصيهم أمام الخلائق».[48] وشهادة جوارحهم وجلودهم عليهم: شهادة تكذيب وافتضاح، فما كانت شهادة جوارحهم إلا زيادة خزي لهم وتحسيرا وتنديما على سوء اعتقادهم فأدّت استعارة النطق للأعضاء وظيفة إعجازية لم تكن في حسبان ذلك الكافر, مما صيّر أهل النار ينكرون ذلك بقولهم: لمَ شهِدتم علينا, فيأتي الدليل القاطع من الطرف المحاور بعد أن استعُير له النطق بما يناسب عقل الإنسان ويصدق على أفعاله, بأن الله أنطقنا الذي أنطق كل شيء.وهذا المشهد التصويري لمّا يحصل بعد, إلا أنه في حكم الحقيقة, واستعارة النطق والكلام للجوارح في الحياة الدنيا, ليتعظ الإنسان وحتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاما وأوفر تحفظا وتصونا منه مع الملأ .

«ولما كانت الحواس خمسة: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وكان الذوق مندرجاً في اللمس، إذ بمماسة جلدة اللسان والحنك للمذوق يحصل إدراك المذوق، وكان حسن الشم ليس فيه تكليف ولا أمر ولا نهي، وهو ضعيف، اقتصر من الحواس على السمع والبصر واللمس، إذ هذه هي التي جاء فيها التكليف، ولم يذكر حاسة الشم لأنه لا تكليف فيه، فهذه واللّه أعلم حكمة الاقتصار على هذه الثلاثة, والظاهر أن الجلود هي المعروفة».(49)

غير أنّ الطاهر ابن عاشور يعلل سبب الاقتصار على شهادة الجلود سبباً غير الذي ذكره المفسرون «وشهادة الجلود لأن الجلد يحوي جميع الجسد لتكون شهادة الجلود عليهم شهادة على أنفسها فيظهر استحقاقها للحرق بالنار لبقية الأجساد دون اقتصار على حرق موضع السمع والبصر. ولذلك اقتصروا في توجيه الملامة على جلودهم لأنها حاوية لجميع الحواس والجوارح ولأن الجلود هي التي تُعذّب والجلود تحس العذاب وينالها العذاب وتدركه».(50)

فجاء الحوار بين أهل النار والأعضاء كما أفصحت عنه الآية الكريمة: ﴿وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا﴾, إذ حوى هذا الاستفهام نبرة خطابية دلّت على عمق المعاناة الإنسانية في هذه المحطة الأخروية, فأهل النار لم تكن لهم دراية بأن جلودهم اللصيقة بهم سوف تتأهب لإعلان العداوة والخصومة في إطار الشهادة عليهم,(51)«لا قصد هنا للسؤال أصلا وإنما القصد إلى التعجب ابتداء لأن التعجب يكون فيما لا يعلم سببه وعلته فالسؤال عن العلة المستلزم لعدم معرفتها جعل مجازا أو كناية عن التعجب».(52) المفروض في نظرهم ألا تشهد, فأنت حق عليك العذاب فلم شهدت علينا؟ وهي ليست كالسمع والبصر، يا جلود لم شهدت علينا؟ العذاب سينالك ألم تفكري في نفسك؟ الجلود هي فعلاً الأولى بالسؤال لأن العذاب سينال الجلود وكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها فهي مدركة للعذاب وهي تحس بالألم فيتوجه السؤال لها منطقياً لأنها تشعر بالعذاب وتحس به وتألم به فكان السؤال منطقياً للجلود.(53)

وكانت صيغةُ جمعِ العقلاءِ في خطابِ الجلودِ وفي قولِه تعالى : { قَالُواْ أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيء وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } لوقوعِها في موقعِ السؤالِ والجوابِ المختصَّينِ بالعقلاءِ أي أنطقنَا الله الذي أنطقَ كلَّ ناطقٍ وأقدرنا على بيانِ الواقعِ

فشهدنَا عليكم بمَا عملتُم بواسطتِنا من القبائحِ ما كتمناهَا, ولعل صيغةَ المضارعِ مع أنَّ هذهِ المحاورةَ بعدَ البعثِ والرجعِ لَمَّا أنَّ المرادَ بالرجعِ ليسَ مجردَ الردِّ إلى الحياةِ بالبعثِ بلْ ما يعمُّه وما يترتبُ عليهِ منَ العذابِ الخالدِ المترقَّبِ عندَ التخاطبِ على تغليبِ المتوقعِ على الواقعِ على أنَّ فيه مراعاةَ الفواصلِ.(54)

العبر المستفادة من هذا الحوار:

1- كشف حوار الأعضاء مع أهل النار عن عبادة فريدة, إذ بدت الأعضاء الناطقة في صور شخصيات عاقلة, تعبر عن طاعة الله وتشهد على أصحابها.

2- حوار الأعضاء ليس ترفاً , ولا توشيحاً فنيّاً بقدر ما هو تعبير عن صورتين متضادتين إذ أصبح الجامد متكلماً, فيتحقق بهذا أهم انقلاب للمأمور على السيد, فيبدو في صورة المنكسر الحزين, الذي يبحث عن النجاة بعد ما أغلقت كل أبواب الإعفاء بوجهه.(55)

المطلب الرابع: حوار الملائكة مع أهل النار:

ورد حوار الملائكة مع أهل النار في نصوص كثيرة في القرآن الكريم, منها على سبيل العدّ لا الحصر : سورة النساء: 97 / , سورة الزمر: 71- 72 /, سورة الملك: 8- 10.

ويمكن أن نحلل الحوار الذي جاء في سورة الزمر, شاهداً على ذلك, إذ يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُوها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72)﴾ [سورة الزمر (39) : الآيات 71 إلى 72]

المعنى الإجمالي للآيات الكريمات:

وحشر الذين كفروا بالله إلى ناره التي أعدّها لهم يوم القيامة جماعات، جماعة جماعة، وحزباً حزباً. في قوله:(زُمَرًا) قال: جماعات. سوق الذين كفروا إلى جهنم يكون بالعنف والدفع ، أي يدفعون دفعاً, وأما الزمر، فهي الأفواج المتفرقة بعضها، في أثر بعض، فبين اللّه تعالى أنهم يساقون إلى جهنم فإذا جاءوها فتحت أبوابها ، وهذا يدل على أن أبواب جهنم إنما تفتح عند وصول أولئك إليها وقوله:(إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا

) السبعة(وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) قوامها:(أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ) يعني: كتاب الله المنزل على رسله وحججه التي بعث بها رسله إلى أممهم(وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) يقول: وينذرونكم ما تلقون في يومكم هذا ، وينذرونكم مصيركم إلى هذا اليوم. يقول: الذين كفروا مجيبين لخزنة جهنم: بلى قد أتتنا الرسل منا، فأنذرتنا لقاءنا هذا اليوم(وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) قالوا: ولكن وجبت كلمة الله أن عذابه لأهل الكفر به علينا بكفرنا به بأعمالهم. يقول تعالى ذكره: فتقول خزنة جهنم للذين كفروا حينئذ:(ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ) السبعة على قدر منازلكم فيها(خَالِدِينَ فِيهَا) يقول: ماكثين فيها لا يُنقلون عنها إلى غيرها.(فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) يقول: فبئس مسكن المتكبرين على الله في الدنيا، أن يوحدوه ويفردوا له الألوهة.(56)

المشهد التصويري في الآيات:

يبدأ عرض المشهد التصويري عند أبواب جهنّم, الحوار بين أهل النار, وخزنة جهنم, أي الملائكة الموكل إليهم أمر جهنّم, وقوله تعالى: وسيق الذين كفروا, والسّوق هو لمجرد الجمع للبهائم, ويقتضي الحث على المسير بعنف وإزعاج, وهو الغالب ويُشعر بإهانة وهو المراد, فهؤلاء الكفرة المجرمين تسوقهم الملائكة كما يسوق الراعي البهائم من الغنم ولإبل وغيرها, إلى موردها بعنف وإزعاج وإهانة, ولكن هذا السوق يكون في أفواج متفرقة وجماعات وزمرة بعضها أثر بعض, ومرتبة حسب ترتّب طبقاتهم في الضلالة والكفر

فهو مشهد تصويري فيه الذعر والهلع والخوف والقلوب لدى الحناجر كاظمين والأبصار شاخصة, وهم على أبواب جهنم والملائكة تحثّهم بإهانة وعنف لولوج النّار, وعند وصول هؤلاء الكفرة أبواب جهنّم بعد مسيرة من السوق والعنف, تُفتح أبواب جهنم, إذْ كانت قبلُ مغلقة, حتى يأتي أصحاب الجرائم الذين يسجنون فيها. فإذا دخلوها أغلقت عليهم, في تلك اللحظة يبدأ الحوار, وقال لهم خزنتها على سبيل التقريع والتوبيخ والزجر, والتبكيت: ألم يأتكم رُسُلٌ منكم, من جنسكم البشري تفهمون منهم وتأخذون عنهم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟!.وهذا الخطاب يقتضي أنهم جميعاً أنذرتم الرسل وبلّغتم رسالات الله وآياته, وقد أيّد الله رُسُله بالمعجزات الحسيّة والبيانية, فجاء الجواب من الكفرة المجرمين بأن قالوا: بلى قد آتانا رُسُل منّا تتلوا علينا آيات ربّنا وأنذرونا لقاء يومنا هذا, ولكن حقّت ووجبتْ كلمة العذاب والشقاء أنّا من أهل النار فهو جواب اعتراف لا اعتذار.

« ومحل الاستدراك هو ما طوي في الكلام مما اقتضى أن تحق عليهم كلمات الوعيد، وذلك بإعراضهم عن الإصغاء لأمر الرسل، فالتقدير: ولكن تكبَّرْنَا وعانَدْنَا فحقت كلمة العذاب على الكافرين، وهذا الجواب من قبيل جواب المتندم المكروب فإنه يوجز جوابه ويقول لسائله أو لائمة: الأمر كما ترى , وجوابهم بحرف {بلى} إقرار بإبطال المنفي وهو إتيان الرسل وتبليغهم فمعناه إثبات إتيان الرسل وتبليغهم .و {كَلِمَةُ الْعَذَابِ} هي الوعيد به على ألسنة الرسل كما في قول بعضهم في الآية الأخرى: {فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ} [الصافات:31]أي تحققت فينا، فالتعريف في كلمة {الْعَذَابِ} تعريف الجنس لإضافتها إلى معرفة بلام الجنس، أي كلمات».(57)

فمن خلال المراجعة الكلامية تبدو صورة جديدة لنفسية مغايرة تماماً للنفسية السابقة التي كانوا عليها في الحياة الدنيا, إذا أجابوا « معترفين ولم يقدروا على الجدل الذي كانوا يتعللون به في الدنيا لوضوح السبيل أمامهم ولا سبيل حينئذ للإنكار والجحود».(58)

فجاء جوابهم بالإيجاب بأداة الإثبات بلى التي تضمن التصديق عليهم, فهو موقف إذعان واعتراف وإقرار وتسليم منهم على ما يستحقونه وهو العذاب, فكانت عاقبتهم هي الدخول إلى جهنم" قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ" .وبه يغلق باب الحوار ليفتح على هؤلاء المجرمين في وسط الجحيم أنواع العذاب وأصناف العقاب.

ونلمح في الآيات الكريمات لطائف بيانية بالحذف والذكر, في حذف المفعول به كلمة ربّهم مع آية وسيق الذين كفروا إلى جهنم , بينما في آية الثانية بعد هذه الآية قد ذكر كلمة ربهم في قوله وسيق الذين اتقوا ربّهم أشار إليها الدكتور فاضل السامرائي في كتابة لمسات بيانية في هذه الآية من سورة الزمر ذكر تعالى الذين كفروا عندما يساقون إلى النار فهؤلاء لا يستحقون أن يرد معهم اسم الله سبحانه وتعالى فضلاً عن أن يذكر اسم الرب (ربهم) الذي يعني المربي والرحيم العطوف الذي يرعى عباده فلا تنسجم كلمة ربهم هنا مع سوق الكافرين إلى جهنم لأن الربوبية رعاية ورحمة ولا تنسجم مع السوق للعذاب ولا يراد لهم أن يكونا قريبين من ربهم لكنها منسجمة مع سوق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة فهي في هذه الحالة مطلوبة ومنسجمة. كلمة الرب فيها نوع من التكريم فلا تذكر مع الكافرين لكن مع المؤمنين تكون مطمئنة ومحببة إليهم (وسيق الذين اتقوا ربهم

إلى الجنة زمرا), وعدم ذكر كلمة ربهم مع الذين كفروا هو لسببين الأول أنهم يساقون إلى النار وثانياً أنهم لا يستحقون إن تذكر كلمة ربهم معهم فلا نقول وسيق الذين كفروا ربهم إلى جهنم لأن كلمة الرب هنا فيها نوع من التكريم, وفعل كفر يتعدّى بنفسه أو بحرف الجر وهنا لم يتعدى الفعل وهذا يدل على إطلاق الذين كفروا بدون تحديد ما الذي كفروا به لتدل على أن الكفر مطلق فهم كفروا بالله وبالإيمان وبالرسل وبكل ما يستتبع الإيمان,(وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً) لم تذكر كلمة (ربهم) .[59]

الشيء الآخر هو السؤال الذي يتردد كثيرًا: لمَ أدخلت هذه الواو واو الجمع في الآية الثانية في آية أهل الجنة على الجواب، جواب حتى في قوله تعالى: "حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا "، ونزعها منه في الآية الأولى في آية أهل النار في قوله تعالى: "حَتَّى إذا جاؤُوها فُتِحَتْ أَبْوابُها "والكلام في الموضعين واحد؟.

ولعلماء النحو والتفسير في الإجابة عن ذلك أقوال, إذْ عدُّوا حذف الجواب من بلاغة القرآن وإعجازه. دل على أنها كانت مغلقة وعن الحكمة في إثبات الواو في الثاني قال بعضهم ولمّا قال في أهل الجنة:" حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا "دل على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها.

وقد وقع هذا القول موقع الإعجاب في نفوس الكثير من الدارسين، والباحثين المعاصرين، من علماء اللغة والنحو والتفسير، وفي الإجابة عن ذلك كله أقول بعون الله , للواو في لغة العرب وظيفة لغوية في التركيب، وهي الربط بين مفردين، أو جملتين، ولها معنيان: أولهما: العطف. وثانيهما: الجمع. وكثيرًا ما تُخلَعُ عنها دلالتها على العطف، فتخلص لمعنى الجمع فقط.. فإذا وضعت موضع:(مع) ، خلُصت للاجتماع ، وخلِعت عنها دلالة العطف ؛ نحو قولهم: استوى الماء ، والخشبة ".ومثل ذلك هذه الواو، التي أدخلت في قوله تعالى:" وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا " فهي واو أخلِصَت لمعنى الجمع بعد أن خلِعت عنها دلالتها على العطف، فدلت بذلك على اجتماع حدثين في وقت واحد: مجيء المؤمنين إلى الجنة، وفتح الجنة أبوابها لهم.[60]

العبر المستفادة من هذا الحوار:

1- إقرار أهل النار جميعاً بالعذاب الجسدي وبالعذاب النفسي

2- تعتبر الآيات فصلاً مسرحياً مستقلاً بمشاهده وموضوعاته المتنوعة وشخصياته.

3- توضحت في هذه المحاورات صور المخلوقات النورانية وهي الملائكة وهي تعبر عن الغلظة والشدة في مواجهة النفس البشرية العاصية لله.[(61)]

أهم النتائج في هذه الدراسة الجزئية:

1-إن الدراسة والبحث والمطالعة كشفت أنّ آيات العذاب قد اتسعت مساحتها لحوارات شتى, ولعلّ العلة أنّ الله أراد من خلال هذه الآيات تصوير الحقيقة الغيبية للإنسان, ليدرك جيداً مصيره الأخروي, ولهذا جاءت موضوعات الحوار للدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالربوبية والتوحيد.

2-توضحت من خلال الحوارات النفسية الحقيقية للشخصيات, حيث تكتسب شخصيات الحوار في مختلف المواقف والمواقع نفسية جديدة ميزتها الصدق العقدي والسلوكي.

3-التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية من الفنون البيانية التي يتوصل بها إلى إبراز المعنى الواحد بطرق متعددة, وقد كان لها دور بارز في توضيح الجمل الحوارية في آيات العذاب والنعيم بما هو أبلغ وأحكم.

4-كشف حوار المعذبين مع أعضائهم مع أهل النار عن عبادة فريدة, إذ بدت الأعضاء الناطقة في صور شخصيات عاقلة, تعبر عن طاعة الله وتشهد على أصحابها.

5-جاءت صورة المشهد والحركة في آيات العذاب والنعيم ,أكثر وقعاً وتأثيراً وتخويفاً في النفس البشرية, ولعلّ ذلك يفسر كثرت آيات العذاب, حتى يتنبّه الإنسان الغافل ويعود إلى طريق الحق الذي رسمه الله عزّ وجلّ.

6-كل ما جاء في حوار آيات العذاب هو لم يحدث بعد, إلا أنّ التصوير البياني جعلنا نعيش المشهد التصويري, وكأنّه حاضر شاخص يموج بالحركة, فهو مشهد حيّ.

الهوامش والإحالات:

(1) ينظر : معجم مقاييس اللغة : صور : 577 ، ولسان العرب : 86/4, والمعجم الوسيط : 1/ 548.

مجلة الآداب واللغات ـــ
(2) التصوير البلاغي في القرآن الكريم بين الإمامين عبدالقاهر الجرجاني, والزمخشري, دراسة وموازنة– رسالة دكتوراه, ندوة بنت حاج داوود, الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا, 2006م,ص2.

(3)دلائل الإعجاز, عبدالقاهر الجرجاني, قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر, دار المدني , جدة, الطبعة الأولى, 1991م, ص508.

(4) الحيوان, أبو عثمان الجاحظ , تحقيق عبد السلام هارون, مطبعة مصطفى البابي الحلبي, مصر, ط2, 1386هـ, الجزء: 3/ 132.

(5) دلائل الإعجاز, عبدالقاهر الجرجاني : 422– 423.

(6) التعريفات, على الجرجاني, مكتبة لبنان – بيروت, 1990م, ص 61.

(7) التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية, د. شفيع السيد, دار الفكر العربي, القاهر – مصر , ط4, 1320هـ, ص32.

(8) لسان العرب, ابن منظور: مادة : بَيَن.

(9) البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع, فضل حسن عباس , دار العلم للملايين, بيروت– لبنان, ط3, 1990م, ص 13.

(10) الإيضاح في علوم البلاغة, الخطيب القزويني, راجعه وصححه بهيج غزاوي, دار إحياء العلوم, بيروت– لبنان, ط1, 1408هـ, ص201, وينظر مفتاح العلوم , أبو يعقوب يوسف السكاكي, تحقيق د. عبدالحميد هنداوي, دار الكتب العلمية, بيروت– لبنان, ط1, 1320هـ, ص437.

(11) ينظر : المختصر (ضمن شروح التلخيص), السعد التفتازاني, تحقيق د. عبدالحميد هنداوي, دار الكتب العلمية, بيروت –لبنان, ط1 1422هـ, الجزء: 3/ 258.

(12) ينظر لسان العرب, أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور, مادة حور, دار صادر –بيرت, مج 4/ 217– 219.

(13) فنون الحوار والإقناع, محمد راشد ديماس, دار ابن حزم, ط1, 1999م, ص 11.

(14) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم, عبدالحليم حفني, الهيئة المصرية العامة للكتاب, مصر, ط3, 1995م, ص 11– 12.

(15) المفردات في غريب القرآن الكريم, أبو القاسم الحسن بن محمد الأصفهاني, مكتبة نزار مصطفى الباز, ط1, 1997م , الجزء: 1/ 117.

(16) ينظر لسان العرب , ومختار الصحاح و المعجم الوسيط وتاج العروس, وينظر مقاييس اللغة لابن فارس : 4/ 260. مادة (ع ذ ب) .

(17) ينظر مفاتيح الغيب, الرازي: 4/ 180, 181, 182

(18) ينظر مفاتيح الغيب, الرازي: 4/ 180, 181, 182.

(19) ينظر جامع البيان(تفسير الطبري), ابن جرير الطبري: 3/ 299.

(20) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني, الآلوسي : 1/ 434.

(21) ينظر تفسير التحرير والتنوير, ابن عاشور: 2/ 96, 97.

(22) ينظر الأتباع والمتبوعون, صلاح الخالدي, دار المنار للتوزيع والنشر –عمّان –الأردن, ط1, 1996, ص54.

(23) التحرير والتنوير, ابن عاشور : 2/ 96, 97.

(24) ينظر التحرير والتنوير, ابن عاشور : 2/ 98.

(25) التحرير والتنوير, ابن عاشور : 2/ 97 .

(26) التحرير والتنوير, ابن عاشور : 2/ 100.

(27) الأتباع والمتبوعون في القرآن الكريم, صلاح الخالدي: ص56.

(28) الأتباع والمتبوعون في القرآن الكريم, صلاح الخالدي: ص 57, 58, (بتصرف).

(29) الحوار في القرآن الكريم, محمود عثمان ضمرة, رسالة ماجستير, جامعة النجاح الوطنية, كلية الدراسات العليا, نابلس – فلسطين, 2005, ص 82.

(30) التفسير المنير, الزحيلي: 2/ 70.

(31) تفسير المنار, محمد رشيد بن علي رضا , الهيئة المصيرية العامة للكتاب, مصر– 1990, ج2/69.

(32) الأتباع والمتبوعون في القرآن الكريم, صلاح عبدالفتاح الخالدي, ط1, دار المنار, عمّان– الأردن– 1996, ص 193.

(33) ينظر تفسير جامع البيان في تأويل القرآن, الطبري: 19/ 73. وتفسير الكشاف, الزمخشري: 3/ 204, وينظر فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب, للإمام شرف الدين حسين بن عبدالله الطيبيّ, تحقيق الدكتور عمر حسن القيّام, جائزة دبي للقرآن الكريم, ط1, 2013م– دبي, الجزء: 10/ 629– 632.

(34) الكشاف, الزمخشري: 3/ 205.

(35) ينظر التحرير والتنوير, ابن عاشور: 18/ 103.

(36) روح المعاني في تفسيرالقرآن العظيم والسبع المثاني, شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي, تحقيق: عبد الباري عطية, دار الكتب العلمية. بيروت– 1415 هـ, الجزء:266/9.

(37) التحرير والتنوير, ابن عاشور: 18/ 104.

(38) لطائف الإشارات , عبدالكريم بن هوازن القشيري ,تحقيق : إبراهيم بسيوني,الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر, الجزء: 2/ 590.

(39) التحرير والتنوير, ابن عاشور : 18/ 105.

(40) التحرير والتنوير, ابن عاشور: 18/ 107.

(41) آيات العذاب والنعيم في القرآن الكريم, سعاد بولشفار, رسالة ماجستير في جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية, قسنطينة– الجزائر:1999–2000,ص62–63.

(42) المرجع نفسه: ص 64.

(43) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن, الطبري: 21/ 451– 452.

(44) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن, الطبري: 21/ 451– 452.

(45) الكشاف, الزمخشري : 4/ 195.

(46) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب, شرف الدين الحسين بن عبدالله الطِّيبيّ, جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم, الإمارات العربية, ط1– 2013م, الجزء: 13/ 593.

(47) البحر المحيط, أبو حيّان الأندلسي: 7/ 92.

(48) ينظر الحوار في مشاهد القيامة في القرآن دراسة دلالية بيانية رسالة ماجستير, هالا سعيد مقبل, جامعة الشرق الأوسط– عمّان :2010– 2011, ص 127.

(49) تفسير البحر المحيط, محمد بنيوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي, تحقيق : صدقي محمد جميل, دار الفكر . بيروت– 1420 هـ, الجزء: 9/ 298.

(50) التحرير والتنوير, ابن عاشور : 25/ 37.

(51) ينظر آيات العذاب والنعيم, رسالة ماجستير, سعاد بولشفار, جامعة الأمير عبدالقادر, قسنطينة– الجزائر, 1999–2000م, ص65.

(52) روح المعاني, الآلوسي: 12/ 367.

(53) ينظر لمسات بيانية لسور القرآنالكريم, د. فاضل السامرائي, ص24.

(54) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم, أبو السعود: 6/ 57.

(55) ينظر آيات العذاب والنعيم, رسالة ماجستير, سعاد بولشفار, جامعة الأمير عبدالقادر,

قسنطينة- الجزائر, 1999-2000م, ص65.

(56) ينظر جامع البيان في تأويل القرآن, الطبري: 1/ 172. وينظر الكشاف, الزمخشري: 4/ 146. وينظر مفاتيح الغيب, الرازي: 27/ 478- 479. وينظر روح المعاني, للآلوسي: 12/ 286- 287.

(57) التحرير والتنوير, ابن عاشور: 24/ 136- 137.

(58) تفسير المراغي, احمد مصطفى المراغي, مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر, ط1: 1946م, الجزء: 23- 24 مج/ 36.

(59) ينظر لمسات بيانية لسور القرآن الكريم, د. فاضل السامرائي, ص 15- 65- 66.

(60) ينظر الإعجاز اللغوي البياني في القرآن الكريم, جمع إعداد: علي بن نايف الشحود, ص 145- 147.

(61) آيات العذاب والنعيم في القرآن الكريم, سعاد بولشفار, ص68.

فهرس المصادر والمراجع

*القرآن الكريم برواية ورش.

1- الأتباع والمتبوعون, صلاح الخالدي, دار المنار للتوزيع والنشر – عمّان – الأردن, ط1, 1996.

2- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم, أبوالسعود, محمد بن مصطفى, دار الكتب العلمية, ط1 , 1999م .

3- أسلوب المحاورة في القرآن الكريم, عبدالحليم حفني, الهيئة المصرية العامة للكتاب, ط3, مصر , 1995م.

4- الإعجاز اللغوي البياني في القرآن الكريم, جمع وإعداد: علي بن نايف الشحود, د/ ن , د/ ط , د/ ت .

5- الإيضاح في علوم البلاغة, الخطيب القزويني, راجعه وصححه بهيج غزاوي, دار إحياء العلوم, بيروت- لبنان, ط1, 1408هـ.

6- البحر المحيط, محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي, تحقيق صدقي جميل, دار الفكر, بيروت , ط1 ,1420هـ.

7- البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع, فضل حسن عباس ,دار العلم للملايين, بيروت- لبنان, ط3, 1990م.

8- تفسير التحرير والتنوير,(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسيرا لكتاب المجيد)

محمد الطاهر بن عاشورالتونسي, الدار التونسية للنشر – تونس, د/ ط, 1984.

9- التعريفات, علي بن محمد بن علي الجرجاني, تحقيق : إبراهيم الأبياري, دار الكتاب العربي, ط1 – بيروت لبنان –1990م.

10- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج , د. وهبة الزحيلي, دار الفكر المعاصر – دمشق, ط2، 1418 هـ.

11- تفسير المنار, محمد رشيد بن علي رضا , الهيئة المصيرية العامة للكتاب, مصر- 1990.

12- تفسير المراغي, أحمد مصطفى المراغي, مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر, ط1: 1946م.

13- التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية, شفيع السيد, دارا لفكر العربي, القاهرة – مصر ,ط4, 1320هـ.

14- جامع البيان في تأويل القرآن(تفسير الطبري), محمد بن جرير الطبري, تحقيق أحمد محمد شاكر, مؤسسة الرسالة, ط1, 1420هـ – 2000

15- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم, تحقيق. السيد الجميلي, دار الكتاب العربي, بيروت –لبنان , ط8, 1407 هـ.

16- الحيوان, أبوعثمان الجاحظ , تحقيق عبدالسلام هارون, مطبعة مصطفى البابي الحلبي, مصر, ط2, 1386هـ.

17- دلائل الإعجاز, عبد القاهر الجرجاني, قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر, دار المدني , جدة, ط1, 1991م.

18- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني, محمود بن عبد الله الآلوسي, تحقيق علي عبد الباري عطية, دار الكتب العلمية, بيروت- لبنان, ط 1, 1425هـ .

19- الصورة الأدبية في القرآن الكريم, صلاح الدين عبد التواب, الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان, القاهرة- مصر, ط1 :1995م.

20- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب, للإمام شرف الدين حسين بن عبد الله الطيبيّ, تحقيق الدكتور عمر حسن القيّام, جائزة دبي للقرآن الكريم,- دبي- الإمارات العربية المتحدة- ط1, 2013م.

21- فنون الحوار والإقناع, محمد راشد ديماس, دار ابن حزم, ط1, 1999م.

22- لسان العرب, أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور, مادة حور, دار صادر